

وهج الرّوح في أشعار الرّومي قراءة في كتاب «قصائد حب إلهية» بترجمة: ناطق فرج



ليندا إبراهيم

باحثة - سورية

هي قصائد الرّوح، ولع الرّوح، تعلق الرّوح، تشبُّهها بعالم علويّ، يرفعها فوق الآدمية الدنيوية، إلى مصاف التّخفف من عالم المادة والجسد، نزوعاً إلى الاتحاد بالعالم النوراني. فأرواح مثل هؤلاء المتصوّفة لا تحتمل الأذى والكذب والرياء ونفاق البشر وكدر العالم المادي فتتوق بشدة إلى التحرر منه وبناء عالم طوباوي نرجسي خاص بها يحاول، حسب منظورها وإيمانها، الحقائق الخالدة، فتخلق الرّوح عاليًا ساعية للاتحاد بأصل العلل وأسها الإله المثل الكامل التّام...

مقدمة عن الأدب الصّوفيّ

نشأ الشّعر الصّوفيّ شكلاً من أشكال الأدب التّعبدية الإسلاميّ الذي يُعبّر عن موضوعات الحبّ الإلهيّ والاتحاد بين الإنسان والله من خلال استعارات شعر الحبّ على مرّ القرون. وقد كان للتصوّف تأثير مهمّ على الأدب في العصور الوسطى، لاسيّما في الشّعر الذي كُتب باللّغة العربيّة والفارسيّة والبنجابيّة والتركيّة والسّنديّة والأردية؛ حيث أتاحت العقائد والتجارب الصّوفيّة قدرًا أكبر من الحرّية للأدب مقارنة بالشّعر السياسيّ الذي ساد تلك الفترة، فظهرت أعمال نظامي وشيرازي وعطار والرّوميّ والحلاج والسّهورديّ وغيرهم من الذين احتجّت قصائدهم على الظلم، مع التّركيز على العدالة الإلهيّة، وانتقدوا الحُكّام لدرجة استعدادهم بثباتهم على ولهم وتعلّقهم بمبادئهم، هذا الثّبات الذي عدّ في تجارب كثيرة ارتدادًا وكفرًا بل خروج عن النّسق الإسلاميّ القويم، ما استتبع قتل معظمهم والتّمثيل بهم وبأشنع الطّرق، لا جناحة لهم ولا تهمة سوى توقّهم للخلاص من ضيق هذا العالم والتحرر لفضاءات الرّوح، وقصص السّهورديّ والحلاج وغيرهم ماثلة في الأذهان عبر التاريخ.

أسباب نشوء التصوف عند الرومي:

ثمة أسباب تاريخية موضوعية سياسية مجتمعية نفسية فكرية إذا ما وُضعت التجارب في سياقها الصحيح، وهنا نتحدث عن تجربة الرومي في المقدمة المسهبة لمترجم الشذرات، الذي يورد أن الرومي نشأ لأب عالم ومتصوف، إذاً هو بالنشأة والمولد مهياً لدخول التجربة الصوفية، تنقل والده لأسباب عدة أهمها ظروف الحرب والظروف السياسية، فقد صرخ في وجه هولاء حين غزا بغداد ودمرها، دليل عدم انحنائه أمام السلاطين، إضافة لمواقفه الكثيرة الأخرى التي دفعتها للترحل، وكان الابن «جلال الدين» يرتحل مع أسرته، حتى استقر أخيراً في قونية، حيث اشتهر بعلمه وخطابته وتعمقه في الفقه والعلوم الدينية، غير أن تحوله للشعر يُعزى للقاءه بشمس الدين التبريزي عام ١٢٤٤، إذ يذكر المترجم: «إن الحكمة الروحية غير التقليدية لشمس التبريزي هي ما صدمت الرومي وهزت كيانه وغيّرت نظرته نحو العالم»، فالشخصيتان جمعتهما آصرة عميقة جعلت الرومي يشعر بيقظة حوّلت اهتمامه من الوعظ إلى نشدان الحب الإلهي الخالص.

علاقته بالتبريزي: كان «شمس» أحد الأولياء الصالحين في بلده، يسعى لإخفاء كراماته عن الناس، كان دائم التنقل والترحال بحثاً عن يفهم تجلياته الروحانية، فوجد ضالته في الرومي، كما وجد الرومي ضالته فيه، فاشتعل الأخير وجداً وأنتج شعراً صوفياً ملأ الدنيا وشغل الناس، يذكر في إحدى قصائده: «حين يعود شمس من تبريز / سيضع رأسه على حافة الباب ليفاجئنا / هكذا»

مفهوم التخلي والتجلي: بعد لقائه

بالتبريزي تغيرت أعماقه، واستيقظت فيها معرفة نوعية أخذت منحى أكثر عمقا ووعياً لكانه لأمس جوهر الحقائق الكبرى، وهنا انزوى وتحلّى بالعشق وانقطع للحب الإلهي فأشرفت نفسه عن تجلياته المعرفية والصوفية. إذ حدث هذا التحول الجوهري الكبير بفضل لقائه «شمس التبريزي»، فكان كلا منهما وجد ضالته في الآخر، وهذا أمر يظهر بكل وضوح في جميع أشعاره.

مفهوم الحب عند الرومي:

الحب عند الرومي هو كون من السعادة، والصوفيون يعيشون وجدهم وعذابات هذا الوجد بكل سعادة، بل يجدون سعادتهم فيها: «يقولون إن الحب هو أن تهتف باسمها، وهذه أكاذيب / يقولون إن أمل الحب لن ينضج، وهذه أكاذيب / يقولون إنه يقبض خلف السماء، وهذه كلها أكاذيب / الحب كون من السعادة يعيش فينا»

ليست هذه المرة الأولى التي توضع فيها قصائد مولانا جلال الدين الرومي موضع الترجمة، وتحت نظر العين المحبّة في أن، هذا الصوفي العريق العميق الذي شغل الأبواب والعقول، وسارت أفئدة الركبان بأبياتيه وحكمه التي تذيب الروح محبةً، وتصقلها نقاءً وتسبغ عليها حلة هي كالترياق للعليل، وما دامت النفس البشرية يُخالطها كثير من أسباب الكدر فإنها تتوق لمن يحزرها من إसार الإهاب الطيني والقفص البشري المدوف بالأكدار، الممزوج بالأحزان ومنغصات الحياة، وما يُخالطها من هموم الدنيا ومتاعها، من وحشة الطريق على النقي المتخفف من فتنها الزائلة إلى محاسن الآخرة الأبدية، وما يرافق الإنسان من وطأة الفقد والفرق للحبيب والصديق والرفيق والأهل والخلان، فيلقى في أشعار الرومي ملاذ

وخلصه، فيركنُ إليه في جميع الأوقات، على اختلاف المجتمعات التي وصلتها أشعاره عبر الترجمة أو النقل أو التعريب، بل قد يبدأ بالبحث عن حياة هذه القامة الكبيرة العالية المقام في دنيا التصوف والزهد والحب الصوفي.

تضمُّ المجموعة مائة رباعية، جاءت على وفق البنية المعروفة للشكل الرباعي، إذ يختزل الرومي الفكرة الصوفية في صياغة شديدة الكثافة. وقد تكررت في هذه النصوص ثيمات جوهرية، أبرزها الفناء في المحبوب والدوبان في الذات الإلهية، وتحطيم الأنا وتمجيد الهلاك في النور، إلى جانب تصوير الحب طريقاً للمعرفة، والتناقض على أنه أداة للكشف حيث تتجاوز المتضادات: قرب وبعُد، نارٌ ونورٌ، خمرة وعبادة، بما يكشف عن تجاوز المعرفة الصوفية للمنطق. وقد جاءت لغة هذه الرباعيات فخمة دون تكلف، وصورها الشعرية موحية غير مباشرة، تستقي من الحياة اليومية رموزاً تحيلُ إلى المطلق: العطش، الخمر، القمر، الظل، الجسد، وإذا ما عرّجنا على النصوص المختارة فإننا نستنتج أهم خصائص شعره:

الدوبان في الحبيب: على الرغم من المعاناة في الحب حتى الألم الشديد، والاتحاد حتى الدوبان، إلا أنه يلجأ لثنائيات متلازمة متضادة كالقرب والبعُد، الاتحاد والفراق، الفضح والتستر، المعافاة والسقم، هذه هي الثنائيات المستحيلة التي يستغرق بها الصوفيون ويرون فيها لذة ويعيشونها حقيقة، هذا ديدنهم في العشق، والألم هنا نوع من المتعة الخاصة التي يسعون إليها، إذ يقفون في المنطقة الفاصلة كحد شعرة واهية يكاد لا يراها غيرهم بين الحقيقة والضلال، الخير والشر، الحق والباطل، الكفر والإيمان: «قريب منك إلى الحد الذي أنا فيه بعيد / متحد بك حد الفراق / مفضوح جداً حد

التستر / معافي مُشافي لا علاج لي أبداً»

جنون العشق: هنا يخرج عن المؤلف في عرف الحب والمحبين وأطوارهم الغريبة لدرجة تحدي القدير - كاتب الأقدار: «حين يدفعني حُبك إلى الجنون / أغامرُ بأشياء لا تجرؤ عليها الشياطين / رموشُ عينيك وحدها تفعلُ بقلبي / ما لا يقدرُ على فعله قلمُ كاتب الأقدار».

كما أن العاشق الصوفي يسعى إلى النار، التي يعرف أنها تُحرقه، عن معرفة ودراية وإرادته الكاملة، أو إلى مُستحيل كبساط من الغبار يجلس عليه مُلازماً عتبة دار المحبوب فقط ليحظى بوصاله، وبساط الغبار دليل الأبدية والفناء من كثرة الانتظار: «أسعى إلى نار تُحرقُ وجعُ الحب / إلى بساطٍ مَصنوعٍ من الغبارِ على عتبة دارك...»

ولابد أن ننوه بأن المحبوبة أو المحبوب، هو القدير العليُّ الذات الإلهية الخ، فتارة يخاطبه بضمير المؤنث «ذات إلهية»، وتارة على أنه رجل، وهذا فقط في عرف المتصوفة وأصحاب الطرائق والمدارس المختلفة فيها: «الأسماء التي أطلقتها عليها: خمرة وكأس أحياناً / وفي بعض الأحيان فضة خالصة وذهب مصفى / حبيبة، وأحياناً فريستي ومصيدتي / كلُّ هذا لأنني لم أستطع لفظ اسمها»

الحكمة: وهذه أهم صفات الشعر الصوفي: يقول: «إن كنت قوياً فلا تترد ثوب العشق / وإن فعلت فلا تبك على فاجعة / سيحترق الثوب، ولكن تحمّل ألمه بصمت / الكراهية اليوم ستصبح عصارة الحياة يوم القيامة»، وفي موضع آخر: «سامح، وإن لم تعرف التسامح من قبل / فلن تُدرك أبداً بركات الله»

السَّعْيُ لِلْكَمَالِ وَالطُّهْرُ: وهما من صفاتِ المطلقِ، يقولُ في رباعيَّةٍ له: «حَبِيبَتِي جَمِيلَةٌ، وَهَذِهِ أَحَدُ عِيُوبِهَا / رَقِيقَةٌ مَرَهْفَةٌ وَهَذَا عَيْبٌ ثَانٍ / لَكُنْ مَا الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَى تَجَنُّبِهَا / كَامِلَةٌ طَاهِرَةٌ، هُوَ ذَا الْإِثْمِ الَّذِي مِنْهُ يَفْرُونَ»

الكُونِيَّة: فقد بحثَ في موضوعاتِ المطلقِ كالحُبِّ والشُّوقِ والبحثِ عن المعنى، فتخطَّى بذلكِ المعتقَداتِ السَّائدةَ مرَكِّزًا على الخبرةِ الرُّوحِيَّةِ والتواصلِ الإنسانيِّ، ما أدَّى إلى انتشاره واشتهاره وترجمةِ أعماله إلى لغاتٍ عدَّة، واهتمامِ المُستشرقينِ وكبارِ الفلاسفةِ والعلماءِ والأدباءِ بها، وتأثرهم بأفكاره: «إذا أردتَ الخلودَ، احترقْ بنارِ الحُبِّ إذن ولا تنم»، وعن العشق يقول: «تسلَّلَ عشقُك إلى قلبي وغادَرَ سعيدًا / دخلَ مرَّةً أخرى، أفرغَ ما به ورحلَ ثانيَّةً / دعوتهُ بأدبٍ امكثَ ليومينِ أو ثلاثة أيامٍ / ولكنْ بعد أن أقامَ في قلبي، تبخَّرتْ فكرةُ الرِّحيلِ /

تَمجيدُ الجمالِ: في قوله: «... / هناكِ مائةُ طريقةٍ للركوعِ والسُّجودِ / أمامَ ضريحِ جمالِ حَبِيبَتِي»

تَمَاهِيهِ مَعَ شَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ يَوْسُفَ، وَشَخْصِيَّةِ شَمْسِ التَّبْرِيْزِيِّ: من عمقِ النَّصِّ القرآنيِّ تبرزُ شَخْصِيَّةُ سيدنا يوسفَ، إذ يتماهى معها ويذكرها غيرَ مرَّةٍ في النَّصوصِ: «من الحقلِ المَخْضَبِ بالدَّمِ سَأَصْرُحُ بِأَعْلَى صَوْتِي / أَنْتَ يَوْسُفُ / ي الَّذِي تَوَاوَزَى وَالْآنَ وَجْدُوهُ»، ويقولُ في نصِّ «هكذا»: «كَيْفَ وَصَلْتُ رِيحُ يَوْسُفَ إِلَى يَعْقُوبَ هَا.. / وَكَيْفَ ارْتَدَّتْ يَعْقُوبُ بِصِيْرًا.. هَا / قَلِيلٌ مِنَ الرِّيْحِ يَشْفِي الْبَصَرَ هَكَذَا».

هذه المختارات المتميزة، يضعها بين أيدينا مشتغلٌ بالترجمة ومنشغلٌ بها، مُسَبِّغًا عليها من اهتمامه بهذا النوع من الشعر ومن إعلائه لشخص

مولانا الرومي، لينتج هذه الترجمة المتقدمة لقصائدٍ مُنتقاةٍ بعناية. وقد اجتمع له أمران؛ الجدارة في الترجمة وحسن انتقاء النصوص...

بعد مائة رباعية يسردها المترجم بلغة النثر الشعريِّ العالية، يوردُ نصوصًا قصارًا وطولًا منتقاة من حيث الشكل والجوهر، ففي نصِّ «اللائي السَّبع» سبعة نصوص قصار، وهناك النصوص التي تظهر بمظهر فنيٍّ مختلف مثل نصِّ «هكذا» الذي ظهرت فيه خاصية التكرار، ونصِّ «الخرزة الشَّفاقة»، و«مَنْ الطَّارِقُ» بصيغة مقاطع قصيرة متتالية لا يفصل بينها فاصلٌ سوى الإيقاع الداخلي الذي يشعُر به المتلقِّي نفسيًا...

ما يميز هذه الترجمة لا يقتصر على الجهد التوثيقي الواضح في المقدمة فحسب، إذ يقدم المترجمُ سيرةً مُسهبَةً عن جلال الدين الرومي، وهي مُوجَّهة أساسًا لمن هم من غير بلد الرومي ولا يعرفون عنه شيئًا، فتتوفرُ لديهم مادةٌ غنيَّة تعرفهم به من نشأته إلى علوه في دنيا الحُبِّ الصوفيِّ والشعرِ والأدبِ، وتُبيِّنُ مكانته السَّامية عبر العصور، فضلًا عن أنها تشكِّلُ بحثًا قائمًا بذاته، بل يتجلى أيضًا في الإحساس العميق بالنصوص ومحاولة الحفاظ على الروحِ الصوفيَّة، يقولُ في إحدى الرباعيات: «هذا الجسدُ الطَّيْنِيُّ هُوَ كَأْسُ الْقَلْبِ / وَأَفْكَارِي هِيَ خَمْرَتُهُ الْجَدِيدَةُ / بذرةُ المعرفة هي ما تأسره / أنا أتذكرها، إلا أن القلبَ يُفشيها» هنا تخال أن النصَّ كُتِبَ لتوه بلغة عربيَّة طازجة، وليس ترجمة عن لغةٍ أخرى، فكيف إذا عرفنا أن المترجم نقله عن الإنكليزية ولكن مع الاطلاع على النصِّ الأصلِ بالفارسيَّة، دليلٌ أمانة الترجمة، وإحساس المترجم المُرهِف، وسعة مُعجمه اللُّغويِّ، ورشاقة الترجمة. كذلك شعرنا بالجرس الموسيقي للنصوص الأصلية، رغم ما يصعب نقله من خصائص الشعر

ودهشة، مُحافظاً على الإيقاع الداخلي وحساسية لغويّة متوازنة، بعيدة عن الجفاف وعن الزخرفة في آن واحد.

كما تتيح هذه المختارات للقارئ العربيّ فرصة نادرةً للملمسة شعر الروميّ بلسان عربيّ مُعاصر، دون خيانة لجوهر النصّ الفارسيّ، ولئن بدت الرباعيات أكثرَ شعريّةً من القصائد النثرية من حيث التّكثيف والرمزيّة، فإنّ الأخيرة تميزت بانسياب شعوريّ ورؤيويّ أكثر اتساعاً.

”قصائد حب إلهية“ مجموعة تستحق أن تُقرأ ببطء وتأمّل، لا كأدب صوفيّ فحسب، بل كرياضة روحية وتجربة وجودية حيّة تُكتب بين السّطور، وتأتي هذه المجموعة بوصفها مشروعاً روحانياً يعيد تقديم تجربة جلال الدين الرومي، شاعر العشق الإلهي، إلى القارئ العربيّ المُعاصر، إذ يتولّى المُترجم مهمّة الترجمة والتقديم، جامعاً نصوصاً مُختارة من رباعيات الروميّ وقصائده بلغة تحاول الموازنة بين الأمانة المعنوية والنبض الشعريّ العربيّ.

”قصائد حب إلهية“ ليست العمل الأول للمُترجم، فقد سبقتها ترجمات عدّة لأهمّ الروايات المُعاصرة والكتب الفكرية والسياسية الأكثر رواجاً وأهميّة في الوقت الراهن إضافةً إلى ترجمته قصائد ومسرحيات لكبار الأدباء والشُعراء الإنكليز.

صدرت عن دار لندن للطباعة والنشر ٢٠٢٥ في كتاب من القطع المتوسّط في ١٨٠ صفحة. واقتنتها المكتبات والدور الوطنية ومكتبات الجامعات في المملكة المتّحدة.

الفارسيّ: يقول في اللؤلؤة الخامسة «سَلني دون تَرُدّد.. / سَلني عن العِشِق، / وسأجيبك عن كُنهِ الجُنون / سَلني عن العقل الذي جُنَّ / وسأريك روحاً أزهقت دون رجعة / سَلني عن مائة مُصيبة / وعن مائة حياة / سَلني عن مائة صحراء ابتلعته النار / وعن مائة بحر مُضمخ بالدم». هنا يبدو الجرس الموسيقي والإيقاع اللفظي بتكرار حرف السين، وكلمة مائة، وتردّد عبارة سَلني، ناهيك عن نقل المعنى بجملة مُشرقة اللّغة وضيئة المفردة تخدم الفكرة الصوفيّة وإشراقه الرّوح.

أما القسم المُخصّص للقصائد النثرية، التي بلغ عددها سبعا وعشرين قصيدة، فقد انفتح على ما يمكن تسميته بالرؤيا الشعرية الصوفيّة. هنا لا يصف الروميّ الحب بل ينفعل به ويجسّده. وقد تحرّرت هذه القصائد من قيود الشكّل والقافية، لكنّها امتلكت إيقاعاً داخلياً نابعاً من الصّور والتكرار والتنغيم، في حين بدأ صوت النفس الصوفيّة يتدرّج من الإقرار العاطفيّ إلى الدوّبان الكلي، في انسجام مع درجات السلوك الصوفيّ من الشوق إلى الفناء ثمّ البقاء. تارة يتحدّث الروميّ بضمير الأنا، وتارة يُخاطب «أنت» الغائب / الحاضر، يتماهى الحبيب بالله والذات المتعالية. وفي هذه النصوص تتجسّد الرّقصة الصوفيّة بوصفها شهادة وجود، كما يُستعاد الاحتراق في نار الحب شرطاً للنصر والخلود.

إنّ ”قصائد حب إلهية“ ليست مختارات شعريّة فحسب، بل وثيقة روحية تكشف جمالياتها بالتوتّر الخلاق بين العاطفة والوعي، بين الحسيّة والتجريد، بين الوجد واللّغة. وقد نجح المُترجم في تقديم ترجمة وفيّة لروح الروميّ، مُنتخباً من نصوصه الك التي تحمل أعمق ما في تجربته من حبّ وشوق وفناء